إسهامات السيد الأجل شمس الدين عمر وأسرته في الحياة السياسية والإدارية الصينية أثناء حكم أسرة يُوَانْ المغولية (670–770هـ/1266–1368م)

Contributions of Sayyid Shamsuddin Umar, with his family, in the Chinese political and administrative life during the Mongolian Yuan Dynasty (670-770AH / 1266-1368).

Contributions de Sayyid Shamsuddin Umar, avec sa famille, à la vie politique et administrative chinoise sous la dynastie mongole Yuan (670-770AH / 1266-1368)

جلايلي أحمد[1] *

تاريخ الإرسال: 2020/08/13 تاريخ القبول: 2020/12/26 تاريخ النشر: 2022/03/10

ملخص:

ركز المقال على الإسهامات التي قام بها الإداري والسياسي المسلم شمس الدين عمر المعروف بالسيد الأجل رفقة أبنائه وأحفاده في تاريخ الصين خلال حكم أسرة يُوَانْ المغولية للصين، ويحاول البحث استغلال بعض المصادر والمراجع الحديثة لاكتشاف العلاقة بين المغول والقوميات الأخرى خاصة المسلمة منها، وأهم النتائج المتوّصل إليها أن العلاقة كانت وطيدة حيث اعتمدوا عليهم في حكم الكثير من المناطق والولايات الصينية. ومن أهم الأسر المسلمة التي كسبت ثقة الأباطرة المغول بالصين نجد أسرة الإداري المسلم "السيد الأجل" الذي عمل على إحداث نقلة نوعية في ولاية يونان، حيث أخرجها من التخلف وألحقها بركب التحضر على غرار الولايات الصينية الأخرى، وقد عاشت مختلف القوميات والجنسيات بوئام وسلام في كنف حكم السيد الأجل، فقد بنى المساجد والمعابد ومدارس الكونفوشيوسية، ولم يستثنى بعطفه أي فئة وعاش سكان يونان في رفاهية وأمان، وقد واصلت أسرته في نفس سياسته وساهموا في ادارة الدولة الصينية ودمج مختلف الجنسيات والمعتقدات في بوتقة واحدة.

الكلمات المفتاحية: السيد الأجل؛ شمس الدين عمر؛ .يونان؛ أسرة يوان؛ المغول؛ الصين.

Abstract :

The article focused on the contributions made by the Muslim administrator and politician, Shams al-Din Umar, known as Mr. Sayyid al-ajdl, accompanied by his children and grandchildren, to the history of China during the Mongolian Yuan Dynasty of China, and the research tries to exploit some modern sources and references to discover the relationship between the Mongols and other nationalities, especially Muslim ones, and the most important results reached The relationship was close as they relied on them to govern many Chinese regions and states. Among the most important Muslim families that gained the confidence of the Mongol emperors in China, we find the family of the Muslim administrator, "Mr. Sayyid al-ajdl" who worked to make a qualitative leap in Yunnan State, bringing it out of backwardness and joining it with urbanization, similar to other Chinese states. The rule of the master term, he built mosques, temples and Confucian schools, and his affection did not exclude any group and the residents of Yunnan lived in comfort and safety, and

*المؤلف المراسل

[1] Ahmed djelaili, university of ahmed draia- adrar, Laboratory of Manuscripts in Africa, University of Adrar, Algeria, E-mail: djellailiahmed@yahoo.fr

his family continued in the same policy and contributed to the administration of the Chinese state and the integration of various nationalities and beliefs in one melting pot.
Keywords: Sayyid al-adjl; Shams El Din Omar; Greece; Yuan Dynasty; Mongols; China.
Résumé :

L'article portait sur les contributions de l'administrateur et homme politique musulman Shams al-Din Umar, connu sous le nom de Sayyid al-ajdl, accompagné de ses enfants et petits-enfants, à l'histoire de la Chine pendant la dynastie mongole Yuan de Chine. La relation était étroite car ils comptaient sur eux pour gouverner de nombreuses régions et États chinois. Parmi les familles musulmanes les plus importantes qui ont gagné la confiance des empereurs mongols en Chine, on trouve la famille de l'administrateur musulman, «M.al-ajdl», qui a travaillé pour faire un saut qualitatif dans l'État du Yunnan, le sortant de l'arriération et le rejoignant avec l'urbanisation, semblable à d'autres États chinois. La règle du terme maître, il a construit des mosquées, des temples et des écoles confucéennes, et son affection n'excluait aucun groupe et les habitants du Yunnan vivaient dans le confort et la sécurité, et sa famille a continué dans la même politique et a contribué à l'administration de l'État chinois et à l'intégration de diverses nationalités et croyances dans un creuset.
Mots clés : Sayyid al-ajdl; Shams El Din Omar; Grèce; La dynastie Yuan; Mongols; Chine.

مقدمة

إن الدارس لتاريخ الصين في فترة حكم أسرة يُوَانْ (Dynasti Yuan) المغولية (670–770هـ/1266–1368) يجده حافلا بالإنجازات في مختلف المجالات، وإن سِر نجاح هذه الأسرة يَكْمُن في اعتمادها على الكفاءات، وخاصة المسلمة، وأهم شخصية تُلفت انتباهنا في هذا الصدد الإداري والسياسي المسلم "شمس الدين عمر"، المعروف بلقب "السيد الأجل" فقد اعتلى هذا الأخير عدة مناصب مرموقة في الدولة وأدى أدواراً بارزة وساهم في ترقية الحياة السياسية والإدارية بالصين.

وقد ارتبط اسم هذا الأخير بحكم وإدارة ولاية مهمة من ولايات الصين المغولية، وهي: ولاية يُونَانْ (Yunnan) الحدودية بين الصين ومنغوليا، التي كانت تعاني شتى أنواع التخلف مقارنة بالولايات الصينية الأخرى، كما كانت تقطنها قوميات كثيرة متباينة الثقافات، ورغم ذلك استطاع في سنوات قصيرة من توليه الولاية على تطويرها والرقي بها وجعلها في مصاف الولايات الأخرى، وأدمجها في المشروع الحضاري الكلي الذي رفعه الإمبراطور "قوبيلاي خان"(Kubilai Khan) (658–693هـ/1260– 1294م)، وصارت مثار انتباه من جميع حكام الولايات الأخرى، وأصبح يحتذي بها في سرعة انتقالها من خط التخلف إلى الازدهار والتطور.

استطاع الحاكم المسلم اصلاح ما أفسده الحُكام المغول الذين سبقوه، وحَّسَنَ العلاقة بينه وبين الرعية، فقد تعامل معهم بلين وشملهم بمشاريعه البناءة، وقام بإصلاحات سياسية وزراعية واقتصادية معمقة، واتبعها بتطبيق سياسة دينية متوازنة ومتسامحة نابعة من عمق المبادئ الإسلامية، وفتح جسور التواصل مع مختلف القوميات بشتى معتقداتها ودياناتها، فبنى

المساجد، وشيد مدارس الكوفوشيوسية والبوذية والطاوية، وبذلك تفادى الصراع العقدي الذي كان سائداً في الولاية قبل حكمه.

واصلت أسرة "شمس الدين" المتمثلة في أبنائه وأحفاده في نفس سياسته، ووضعوا يدهم في يد الدولة الصينية، وخدموا المجتمع بمختلف المناصب التي تقلدوها، فكانت أعمالهم تجسيداً لتجانس الجاليات المسلمة في الحياة الصينية، وتعكس مدى اندماج تلك الأسرة في التاريخ الصيني، وعملوا على خدمة الدولة والمجتمع في وقت واحد. ولا يزال أحفاد هذه الأسرة يقدمون خدمات جليلة للصين إلى غاية اليوم.

تتمثل إشكالية البحث في العلاقة الوطيدة التي كانت بين (أسرة يُوَانْ/Dynasti Yuan) المغولية الحاكمة للصين والمسلمين والعوامل التي أدت إلى تعيين قوبلاي خان(Kubilai Khan) (627-639هـ/1229-1241م) الشخصية المسلمة "شمس الدين عمر" المعروف بالسيد الأجل في عدة مناصب ؟ والعوامل التي جعلت الإمبراطور يختاره لحكم ولاية "يُونَانْ"(Yunnan) المهمة ؟ التي كانت تمثل ثقل سياسي واجتماعي وديني للصين، بالرغم من وجود الألاف من الإداريين الصينيين وغير الصينيين الأكفاء ؟ وتكمن صعوبة البحث في أن المصادر الصينية لم تسلط الضوء بشكل كافي عنه، فقد أهملت لإشارة إلى جهوده الإدارية وجهود أسرته، وهذا ما جعلني أزداد إصراراً للمضي قدماً في البحث عن تاريخ هذه الشخصية المسلمة التي ارتبط اسمها بأعظم حضارة صينية، وقد حاولت من خلال المصادر والمراجع الشحيحة التي تحصلت عليها إعطاء صورة واضحة عن المنجزات التي قام بها السياسي المسلم.

1- الأصل والتسمية والمناصب التي اعتلاها "شمس الدين عمر" قبل حكم ولاية (يُونَانْ)[1](Yunnan)

عُرفت الشخصية مدار الدراسة بالسيد "عمر شمس الدين الأجل"، وإنّ اسمه هو "عمر شمس الدين"، أما "السيد الأجل" فهو لقب أُطلق على العلويين في آسيا الوسطى، وهو يُعَبِّرُ عن الاحترام والتقدير مثل: "المبجل"، و"فَخَامَة" وغيرها، ومصطلح "السيد" أُطلقت على كل شخص ينتمي نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، بهذا تكون كلمة "سيد" وكلمة "أجل" ضمن الاسم لهذا السياسي البارز تشير إلى انتمائه لبيت النبوة بطريقة أو أخرى. وبذلك يعود أصل "عمر شمس الدين" إلى العرب ويُزعم أن نسله يتصل بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد ولد في مدينة بخارى[2] (أوزبكستان الحالية)، كانت أسرته تتمتع بمركز ديني وسياسي مرموق قد هاجرت إلى وسط آسيا مع انطلاق الفتوحات الإسلامية الأولى. وبعد مرور الوقت أصبح أسلافه حكاماً على مدينة بخارى (كرار، 2007، الصفحات 51-52).

إن الأبحاث الصينية كانت مضطربة حولة تاريخ وصول "عمر شمس الدين" إلى الصين، فحسبها أن فرع من

---

[1]- تقع يونان جنوب جبال يونلينغ على الحدود الجنوبية من جنوب غرب الصين، وحملت اسمها من موقعها جنوب جبال يونلينغ، تزيد مساحتها على 390.000 كلم[2] وهي مقاطعة متعددة القوميات اذ يقطنها قوميات "بي" و"باى" و"هانى" و"تشوانغ" و"داى" و"مياو" و"ليسو" و"هوى" و"لاهو" و"وا" و"ناشى" و"ياو" و"التبت" و"جينغبو" و"بولانغ" و"آتشانغ" و"نو" و"بومى" و"جينوه" و"بنغلونغ" و"دولونغ". ينظر (قوانغ، 1987م، صفحة 161).

[2]- هي مدينة تقع في بلاد ما وراء النهر بآسيا الوسطى، يتم العبور إليها من شط آمُل، وتبعد عن نهر جيحون بمدة يومين، كانت عاصمة للدولة السامانية في وقت من الأوقات. (الحموي، 1397هـ/1977م، صفحة 353)

العائلة انتقل إليها في حوالي عام 463هـ/1070م مع وفد متشكل من بعض أعيان قبائل بخارى ببلاد ما وراء النهر[1] لتقديم الولاء للإمبراطور الصيني. ويُشير سِجِل الأنساب الخاص بالأسرة إلى أن أجداده قد انتقلوا من بخارى إلى الصين أثناء حكم (أسرة سُونْغْ)(Dynastie Song)[2] (960-1127م) لشمال الصين (كرار، 2007، الصفحات 51-52).

وهناك من ذكر بأن الأسرة دَخلت إلى الصين مع الجيوش المغولية، وأن الإمبراطور "قوداي(أوكتاي) قاآن"(Tai Zong)[3] (627-639هـ/1229-1241م) عَّين "شمس الدين عمر" في عام 628هـ/1229م رئيساً تنفيذياً (والياً) على ثلاث ولايات مهمة تشمل مساحة واسعة، تمتد من شمال غرب "دَاتُونغ"(Datong) في محافظة شَانْسي(Shanxi) إلى منغوليا[4] الداخلية، حتى غرب (جِينْيِنْغْ) (Jining)، وتضم كل من: ولاية (فَنْغْ) (Fang) شرق مدينة (هُهَوهُوت) (Huhehot)، وولاية (جِينْغْ) (Jing) شمال المدينة نفسها، وولاية (يُونْ نِي) (Yunnei) غربها، وتعتبر هذه الولايات مراكز تجارية مهمة تحوي كثافة سكانية عالية. وقد شكل هذا المنصب المهم بداية تاريخه السياسي والإداري بالصين. وقد وصل "شمس الدين" إلى المنطقة وهي لا تزال تعاني من آثار المعارك التي جرت بين جيوش المغول وأسرة (جِينْ/Jin) التي انتهت في سنة 611هـ/1214م (كرار، 2007، الصفحات 52-53). ويبدو أن هذه الرواية صحيحة إلى حد ما وأقرب إلى المنطق أكثر من الرواية الأولى.

---

[1]- ما وراء النهر: هو الاسم الذي أطلقه العرب على المنطقة المتحضرة الواقعة بين حوض نهري أَمُودَارْيا (Amu-Darya) المعروف باسم(جيحون)، وسرداريا (Sir-Darya) المعروف باسم(سيحون)، وقد خضعت هذه البلاد في معظم الوقت لسيادة القبائل التركية، مع ذلك كانت الحدود السياسية بين إيران وتوران (تركستان) عرضة لتغيرات عديدة على مر العصور التاريخية، ولكن ابتداء من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وقعت المنطقة نهائيا تحت سيطرة شعوب آسيا الوسطى وكان نهري أَمُودَارْيا (Amu-Darya) هو الحد الفاصل بين محيط نفوذ الطرفين. (بارتولد، 1401هـ/1981م، صفحة 145)

[2]- أسسها "جاو كوانغ ين" (Zhao Kuang Yin) القائد العسكري لأسرة تشو الحاكمة شمال شرقي كايفنغ الصينية، بعد التمرد العسكري الذي قام به في الشهر الأول القمري من عام 960م، وخلع رجال الانقلاب على قائدهم رداء أصفر كرم لاختياره امبراطوراً جديداً للبلاد، واتخذ مدينة "دونغجينغ" (كايفنغ، مقاطعة خنان حاليا) عاصمة له، واطلق المؤرخون الصينيون على هذه الأسرة اسم اسرة سونغ، وكان "تشاو كوانغ ين" أول أباطرتها حاملا لقب "سونغ تاي تسو" (تولى الحكم من عام 960 إلى عام 976م)، واستمرت الأسرة تحكم من سنة 960م إلى غاية 1127م، وقد عزت السلطة المركزية، والقبضة الاستبدادية للحكم. (جاو، 2004م، صفحة 474) (مجهول، 1987م، الصفحات 7-8)

[3]- هو الابن الثالث لجنكيزخان، وزوجته "بورته فوجين" من قبيلة قونقرات، ومعنى اسم أوكتاي بالعربية هو العروج إلى الجبل، وقد اشتهر بالعقل والكفاءة وسداد الرأي والتدبير الجيد والعدل ولكن كان ميالاً إلى اللهو والشراب. اعتلى عرش الإمبراطورية المغولية سنة 626هـ/1228-1229م) خلافا لوالده جنكيزخان (الهمذاني، 1983م، الصفحات 16-30).

[4]- تقع منغوليا في قلب آسيا الوسطى، وهي عبارة عن هضبة تحيط بها الجبال الشاهقة والصحاري القاحلة، مثل: جبال (خَنْجَانْ) و(يَابُلونُوي) و(آلْتَاي) و(سَايَانْ)، وصحراء (جُوبِي) الواقعة بجنوبها الشرقي، يبلغ طولها أكثر من 1200 ميل، وهي صحراء رهيبة تخلو من أي نهر كبير أم صغير، وبمنغوليا صحاري أخرى مثل: صحراء (قزلقوم) وصحراء (قراقورم) الواقعة غربي نهر جيحون وصحراء (تاكلا ماكان) بحوض شط تاريم، وهذه الصحاري تبدو كمواضع سرطانية تهلك المراعي والمروج الخضراء، ومناخ منغوليا قاري حار صيفا تصل درجة الحرارة إلى 38 فوق الصفر، وبارد شتاء تصل درجة البرودة إلى 42 تحت الصفر، وتتراءى منغوليا من شهر حزيران حتى آب كبساط أخضر تغطيها الأعشاب الخضراء والأزهار، ثم يليها برودة إبتداءا من شهر أيلول وتشتد العواصف الثلجية والرياح العاتية في تشرين الأول يتبعها تجمد الأنهار والمياه في تشرين الثاني، وتستمر إلى شهر أيار من العام المقبل. (بياني، 2013م، صفحة 15 فما بعدها)

وقد لفتت سيرة هذه الشخصية المسلمة بعثة عِلْمِيَة فرنسية، بقيادة (أولون/oulon) ، زارت الصين في الفترة ما بين 1323هـ/1906 و1327هـ/1909م، وتَقَصَت أحوال المسلمين هناك، ونشرت نتائجها في مدينة (باريس)، وقد عَثَرَتْ البِعثة في مقاطعة (يُونَانْ)(Yunnan) الصينية – التي كان "عمر شمس الدين" حاكما عليها –، على مخطوط مُحَرَرْ في عام (1095هـ/1684م)، سَجل صفحات من تاريخ هذا المسلم الذي لمع نجمه أثناء حكم "أسرة يُوَانْ"(Dynasti Yuan)[1] المغولية بالصين (هويدى، يوليو، 1981م، صفحة 52).

ذُكر في المخطوط أنه لما زحف المغول بقيادة (جنكيزخان)(Gengis Khan)[2](549-623هـ/1155-1227م) على المنطقة الغربية لمملكته الفتية ما بين 602/ 1206 و626هـ/ 1229م سارع جد (شمس الدين عمر) برفقة ألف فارس من سكان بخارى إلى تقديم فروض الطاعة والخضوع، فأكرمه العاهل المغولي وضمه إلى مستشاريه الخاصين وأصبح من بطانته المقربين (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 231). وقد تربى حفيده (شمس الدين عمر) الذي كان يبلغ التاسعة من العمر في منطقة بين منغوليا والصين، ولما أصبح شابًّا عَمِل بوظائف حساسة في عدة مناصب بالدولة المغولية (مان، 2013م، الصفحات 90-91).

فقد كان من الحُراس المقربين لجنكيزخان(Gengis Khan) (549-623هـ/1155-1227م) ثم تولى القيادة العسكرية لمنطقة بشمال الصين، وأشرف على عملية الإمدادات العسكرية للجيش المغولي في الجبهة القتالية. (تشونغ، 1999، صفحة 08). ثم تم استدعاؤه إلى العاصمة "بكين"(Pékin) وعُهد إليه بمنصب كبير. ولما تولى الحاكم نانغو(منكو قاآن)[3](648-655هـ/1250-1257م) عهد إليه بإدارة ست نظارات بالاشتراك مع شخص أخر هو (تا أول هوان)، ثم جعله مديراً عاماً لمقاطعة (يَانْ كِينْغْ/Yan King) فأحسن إدارتها فعهد إليه بِنَظَارة الاستخبارات، ثم لما زحف الإمبراطور على بلاد (تسو-تشوان أو سيتشوان/Tso Chuan)[4] جعله ناظراً للميرة العسكرية، فأدى المهمة بكل جدارة (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 231).

---

[1]- هي أسرة مغولية حكمت الصين أسسها قوبيلاي خان حفيد جنكيزخان، حيث زحف بقوات عسكرية وإستولى على دالي جنوب غربي الصين فحاصر أسرة سونغ الجنوبية، ثم ورث حكمها متخذا من بكين عاصمة له، وأعلن رسمياً اسم دولته بـ "يوان" في عام 1271م، ولقب نفسه بـ "يوان شي تسو" وهو أول امبراطور لاسرة يوان المغولية التي حكمت الصين، وتولى الحكم من عام 1260م إلى عام 1294م، وحكمت أسرة يوان الصين من عام 1271م إلى عام 1368م. (ينظر، (مجهول، 1987م، صفحة 33)

[2]- ولد جنكيزخان في سنة 549هـ/1155م وتوفي في عام 623هـ/1227م، واسمه الحقيقي تيموجين، وأمه من قبيلة قيات المغولية، وكان أبوه (يسوكاي بهادر) رئيس قبيلة شجاع تخضع له معظم القبائل المغولية، عمل (تيموجين) بعد وفاة والده على توحيد كل القبائل المغولية، فبسط سيطرته على قبيلة (التانجوت)، وضم إليه مناطق واسعة من شمالي صحراء جوبي، وفي سنة 599هـ/1202م، أخضع قبيلة (كرايت)، وفي سنة 600هـ/1203م هزم قبيلة النايمان، ثم بسط سيطرته على كل الأقوام في منغوليا والتبت وشرقي تركستان، وأتته القبائل تخطب وده. وفي سنة 600هـ/1203م نُصب إمبراطورا على كل المغول، وأضيف إليه لقب (خان)، وقيل أن السماء أعطته لقب (جنكيزخان) الذي يعنى خان العالم، وكان عمره 44 سنة، وأصدر دستور (اليَاسَا) أو (اليَاسَقْ) (ينظر، (القلقشندي، القاهرة، صفحة 305)؛ (بروكلمان، 1968م، صفحة 246)؛ (الصياد، 1980م، صفحة 30 فما بعدها)؛ (ohsson'C.D، 1834، صفحة 39)

[3]- هو منكوقاآن الابن الأكبر لتولوي خان بن جنكيزخان، ولد من زوجته الكبرى "سيور قوقتيتي بيكي"، تولى عرش المغول بعد وفاة كيوك خان. (ينظر، (الهمذاني، 1983م، صفحة 195).

[4]- تقع مقاطعة سيتشوان على المجرى الأعلى لنهر اليانغتسى في جنوب غرب الصين. (ينظر، (قوانغ، 1987م، صفحة 155).

ارتقى (عمر شمس الدين) بعد ذلك إلى منصب الوزارة، وعُين في مكان وزير مسلم أخر اسمه (محمود يلواج)[1]، حيث فَوض إليه المغول الوزارة وحكم ولاية "قراجانك" التي تَعرض فيها جيش (قوبيلاي)(Kubilai)[2] (658-693هـ/1260- 1294م) قبل توليه السلطة، لبعض النكسات، هلك على اثرها الكثير من الجند جوعاً، فسارع الحاكم المسلم إلى تقديم يد العون لهم، وأمدهم بكافة الخدمات اللازمة، فَكَبُر في عين (قوبيلاي)(Kubilai) وعهد من تلك اللحظة برعايته وتكريمه، لأنه خَلَّصَ الجيش المغولي من المأزق، ولما اعتلى هذا الأخير عرش المغول سنة 658هـ/1260م، استدعاه من ولاية "قراجانك" وقلده منصب الوزارة، وجعله عضواً في مجلس السر الأعلى للمغول، وفوض حكم تلك الولاية لابنه "ناصر الدين" (الهمذاني، 1983م، الصفحات 283-284).

وفي سنة 659هـ/1261م تولى القضاء بمدينة (بكين/Pékin)، ثم عينه الإمبراطور نائباً للوزير الأول ليشرف على الأمور الهامة العسكرية والمدنية للبلاد، وبعدها في سنة 662هـ/ 1264م عُين حاكما عاماً بدرجة نائب الوزير الأول لمنطقتي: شَانْسِي أو سينشي(Shaanxi /Cenxi)[3] (تسو-تشوان أو سِيتَشوان)(Tso Chuan/ Sichuan) (تشونغ، 1999، صفحة 08). وقام أثناء حكمه بتوزيع الأراضي وقطعان الماشية والحبوب على من لا يملكون للاندماج في عمليات الإنتاج وتنشيط الدورة الاقتصادية، مما انعكس إيجابا على الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي (كرار، 2007، الصفحات 53-54).

تكررت قصص نجاحات شخصيتنا في كل منطقة حكمها، مثل: (يَانْجِينْغ)(Yanjing) (بكين/Pékin) الحالية، و(كُتَانْ)[4] (Koutan)، و(تَشندِينغ)(Zhending)، حيث قام بإصلاحات في المجالاي: الزراعي والضرائب، وخلال عشرين عاماً من حكمه (يَانْجِينْغ) (Yanjing) منذ عام 663هـ/1264م شهدت المنطقة ازدهاراً واستقراراً ملحوظين.

---

[1]- يلواج هو مصطلح معناه السفير أُطلق على الوزير المسلم محمود الخورزمي عندما قام بمهمة السفارة بين جنكيزخان والسلطان محمد بن خوارزمشاه سنة 614هـ/1217م، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه لقب (يلواج) ودخل في خدمة جنكيزخان وأصبح في خدمته، حيث كان من أقرب مقربيه وبمثابة وزيره الأول ومستشاره الخاص، وبقي يتمتع دائما بعطفه ورعايته إلى أن عينه نائبا عنه على بلاد تركستان ومنطقة ما وراء النهر، وظل في ذلك المنصب إلى عهد "أوكتاي خان"(626-639هـ/29-1241م) الذي نقله إلى الصين وعينه حاكما على بكين وبقى فيها إلى أن مات سنة 652هـ/1254م. (ينظر، (الصياد، 1980م، صفحة ج.1، 155)؛ (بارتولد، تاريخ الترك في أسيا الوسطى، 1416هـ/1996م، الصفحات 203-204).

[2]- هو قوبيلاي قاآن الابن الرابع لتولوي خان بن جنكيزخان، كان أسمر اللون. (ينظر، (الهمذاني، 1983م، صفحة 237).

[3]- تقع مقاطعة شانسي أو شنسى في المجرى الأوسط للنهر الأصفر في الجزء الشرقي لشمال الصين الغربي، وهي مهد الأمة الصينية اذ اتخذ 13 أسرة ملكية صينية عاصمتهم هناك. (ينظر، (قوانغ، 1987م، صفحة 167).

[4]- هي مقاطعة زراعية تقع جنوب النهر الأصفر بالمجرين الأوسط والأسفل للنهر الأصفر، عُرفت بهذا الاسم لأن القسم الأعظم منها يقع إلى الجنوب من النهر الأصفر، وهي من أقدم المناطق المتطورة بالصين، وكانت مركزاً سياسياً وثقافياً للصين القديمة، وقد كانت الصين مقسمة إلى تسع مناطق جغرافية، وكانت ختان أو خنان تُدعى "المنطقة الوسطى" أو "السهل الأوسط" لأنها كانت تقع في وسط المناطق التسع، وتبلغ مساحتها أكثر من 160.000 كلم^2. (ينظر، (قوانغ، 1987م، صفحة 135).

وكسب ثقة الرعية في المناطق التي أدارها. حيث كان يقوم بخفض الضرائب وتوزيع المؤن على الناس في زمن الكوارث الطبيعية بل ويقوم أحياناً بإلغاء الضراب (كرار، 2007، صفحة 53).

2- أوضاع ولاية (يُونَانْ)(Yunnan) أثناء تعيين (عمر شمس الدين) حاكما عليها

كان (شمس الدين عمر) كلما تقلد عملاً ظهرت فيه فضائله وحاز رِضى الإمبراطور والعامة (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة مج.1، ج.2، 231). إلاّ أنَّ أهم إنجازاته على الإطلاق كانت في ولاية (يُونَانْ)(Yunnan) الحدودية مع منغوليا، التي تضم عشرين مقاطعة، ويحدها من الشرق سونغ ومن الغرب بيرمانيه ومن الشمال التبت[1] ومن الجنوب آنام (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 232. مج.1، ج.2)، وكانت الولاية تبعد بألف كلم من (هانون)(Hunnan)، وتمثل ثقلا في كفة الميزان الصيني وتحدث التوازن الداخلي (مان، 2013م، صفحة 90).

لقد استدعى الإمبراطور قوبلاي خان(Kubilai Khan) في عام 673هـ/1274م "شمس الدين" من منطقتي: شَانْسِي أو سينشي(Shaanxi /Cenxi) و(تسو تشوان أو سِيتَشوان)(Tso Chuan/ Sichuan) وعينه حاكماً على (يُونَانْ)(Yunnan)، هذه الأخيرة التي كانت تعاني الفقر وتسودها الاضطرابات بسبب ثورة الأقليات القومية بقيادة (شِيلِي وَي) (Sheli Wei)، وقد أدت في عام 670هـ/1271م إلى مقتل أمير الولاية (هُوقْ إِشِي)[2] (Hug Echi) الابن السادس لقوبلاي خان(Kubilai Khan) بسبب صراع على السلطة وسوء إدارته للمنطقة (كرار، 2007، صفحة 54). وعند تعيين الوال المسلم حاكماً للولاية أوصاه الإمبراطور قائلا: **"إن منطقة يُونَانْ هامة جداً وزرتها في الماضي ولكنها اليوم في حالة عدم الاستقرار والأمن بسبب عدم كفاءة الحكام السابقين وأرى فيك الإخلاص والاتزان وأنت كفء بالمهمة"** (تشونغ، 1999، صفحة 08).

3-الإصلاح السياسي والاجتماعي والزراعي في (يُونَانْ)(Yunnan)

وجد الحاكم الجديد الذي بلغ من العمر آنذاك 63 عاماً المنطقة تعيش في فقر مُدقِعاً، ونظاماً زراعياً متخلفاً وضعيفاً، حيث لم تكن تعرف على سبيل المثال زراعة بعض المحاصيل التي كانت منتشرة بشكل واسع في الولايات الصينية الأخرى كالأرز، كما أنه لم يكن في المنطقة أية نُظم للري تذكر، زيادة على ذلك وجد السكان يعانون من نظام ضرائب قاس لم يراع فيه الفقراء من الناس (كرار، 2007، صفحة 54).

وكانت الولاية في غاية من الانحطاط والخراب، كما وجد سكان الولاية متخلفون كثيراً عن ركب الحضارة الصينية، فقد كانوا شديدي التخلف، يحكمهم أمير مغولي من بيت (قوبلاي خان)(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260-1294م) فلم يدخل (شمس الدين) معه في صدام مباشر، بل سايسه وحَسَنَ العلاقة حتى استماله وأصبح صديقاً حميماً له

[1]- تُبْت: بالضم وهناك من ينطقها بالكسر والبعض ينطقها بفتح الثانية، وهي بلد بأرض الترك، موجودة في الإقليم الرابع المتاخم لبلاد الهند، وتبت مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة الغرب لبلاد الترك، ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات سعة وقوة، وأهلها حضر وبدو. (ينظر، (الحموي، 1397هـ/1977م، صفحة ج.2 10).

[2]- هو الابن السادس لقوبيلاي خان، ولد من زوجته "دور باجين خاتون" من قبيلة دوربان، وقد فوض إليه والده حكم ولاية قراجانك.(ينظر، (الهمذاني، 1983م، صفحة 239).

(لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 231. مج.1، ج.2). والتحدي الأخر الذي واجهه الحاكم الجديد هو في التعداد الثقافي لإقليم (يُونَانْ)(Yunnan)، فقد استقرت بها شعوب عديدة لم تكن من أبناء البلد الأصليّين (مان، 2013م، صفحة 91).

عمل (شمس الدين عمر) طيلة الفترة التي حكم فيها الولاية بجد ونشاط، وأنجز خلالها أعمالاً ومشاريع كثيرة وعظيمة نالت التأييد من الإمبراطور والثناء الواسع من عامة الشعب (تشونغ، 1999، صفحة 08)، فبدأ إصلاحاته الشاملة بتنظيم الهيكل الإداري للمنطقة، ونزع السلطات الفعلية من كبار القادة الإقطاعيين وجنرالات الجيش المغولي، وفَصل السلطة العسكرية عن السلطات المدنية. وبحلول عام 675هـ/1276م قام إلغاء النظام الإداري القديم وتم استبدله بأخر جديد، أكثر نجاعة. (كرار، 2007، الصفحات 54-55).

مهد الإصلاح السياسي إلى إصلاح زراعي ريفي شامل، بدأه بتشييد البنى التحتية للولاية، بتعبيد الطرقات وبناء المعابر والجسور والسدود لتخزين المياه (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 231، مج.1، ج.2)، كما قام بتصميم نظام حديث ومتكامل للري ارتكز على إحداث مشروع ضخم تمثل في تعميق بحيرة (هَايكُو)(Haikou) والاستغلال الأمثل لنهر (بَانلُونْغ)(Panlong)، ومن ثم تَصْمِيم شبكة ري مرتبطة بالبُحيرة والنهر، الغرض منها امتصاص مياه الفيضانات وتخزينها على طول ست بحيرات وسدود متتابعة. حيث شيد على مسافة كل 10 كلمترات أكثر من 70 سداً صغيراً امتدوا على طول النهر، فكانت المياه تُنقل بشكل مُنتظم من تلك السدود إلى الحُقول الزراعية (كرار، 2007، الصفحات 54-55). ولضمان سَيَرَانْ المياه بشكل دائم ودقيق جعل بريداً مؤلفاً من 360 فارساً وحارساً تتلخص مهمتهم في مراقبة السدود، بحيث إذا حَصل فَتْقٌ في أحدها أسرعوا بإخبار الحكومة فأخذت التدابير اللازمة بسرعة لِرَتْق الفتق وإصلاح السد. كما تم بناء حواجز لكي تحد من ضرر طغيان مياه بعض الأنهار وفيضانها على بعض الأراضي الزراعية المحاذية للنهر والسدود، فتؤدي إلى إتلاف الزروع الفلاحية (لوثروب، 1394هـ/1973م، الصفحات 231-232. مج.1، ج.2).

قامت الإدارة الجديدة ل(يُونَانْ)(Yunnan) بشق قنوات ري مثل (جِن تِشي) (Jin Zhi) التي أدت إلى ازدهار الزراعة وتعزيز حركة التعمير على طول القرى التي مرت بها القناة. ولا يزال نظام الري يعمل في بعض أجزائه حتى الوقت الحاضر. وقد أذهل نظام الري في حوض (كُونمينغ)(Kunming) الاختصاصيين المعاصرين. وبعد الانتهاء من تنظيم قنوات الري قامت الحكومة باستصلاح أراض واسعة وتم إدخال محاصيل زراعية جديدة لم تكن معروفة من قبل في الإقليم (كرار، 2007، صفحة 55).

أتبع وَلِي (يُونَانْ)(Yunnan) مشروعه النهضوي بإصلاح نظام الضرائب، مما أدى إلى تخفيف الأعباء عن كاهل المزارعين وتطبيق سياسات مناسبة للمزارعين الفقراء. بحيث أزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وخفف المكوس وأقام الأسواق، وأدخل في طاعة الإمبراطورية أعداد كثيرة من الأقوام (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 231، مج.1، ج.2)، وكانت النتيجة جد مذهلة، حيث ارتفعت معدلات الإنتاج الزراعي بسرعة، وانتقلت قوميات كاملة من دائرة الفقر إلى

دائرة الغنى وعاشت حياة أفضل. وأصبحت مدينة (كُونمِينغ)(Kunming) لأول مرة عاصمة اقتصادية وتجارية وثقافية لإقليم (يُونَانْ)(Yunnan)، وقد التفت "شمس الدين" إلى الفئة الهشة من المجتمع كالمحتاجين واليتامى والأرامل وذوي الاحتياجات الخاصة وذوي الدخل المحدود، وغمرهم بالعطف وخصص لهم نصيباً من ثمار الازدهار الذي شهده الإقليم، من طعام وملبس (كرار، 2007، الصفحات 55-56).

ومن سياسته الحكيمة ونوادر سيرته الحميدة أن ملك (لُوبَانْ)(Lu Ban) ثار على السلطة، فأصدر قوبيلاي خان(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م) أمراً لشمس الدين بالزحف عليه والقضاء على ثورته، فلما سار رآه الجيش حزيناً وكئيباً فسألوه عن السبب، فأجاب قائلا: لست كئيباً لكوني ذاهباً إلى الحرب بل لأن كثيراً منكم سيهلكون في هذه الحرب بدون ذنب اقترفوه وأنه سيهلك مهم أناساً كثيرين لا ذنب لهم، ولما وصل إلى مكان العصيان أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم طيلة ثلاثة أيام، وفي تلك الأثناء وَثَبَ بَعضٌ من قواد جنده على البلدة الثائرة، مما أدى إلى غضب شمس الدين واستدعاهم ووبخهم قائلا: إن ابن السماء (الإمبراطور الصيني) أمرني أن أتولى بلاد (يُونَانْ)(Yunnan) وأحكم فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعدوان، فلا أرضى أن تهاجموا البلدة ما دام الثوار وعدوا بالطاعة والتسليم، ثم أوثق الضباط وعاقبهم، ولما سمع الثوار بما حصل سلموا أنفسهم وسكنت البلاد. (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 232، مج.1، ج.2).

4- سياسته الدينية

إن أبرز ما يلفت انتباه الدارس لشخصية (عمر شمس الدين) هو سياسته الدينية وعلاقته بالقوميات والأقليات المختلفة في إقليم (يُونَانْ)(Yunnan)، وهي في الأصل تضم تشكيلة متباينة من الجنسيات والديانات والثقافات، منها: قومية (بِي) و(بَاى) و(هَانِى) و(تشُوانْغْ) و(دَاى) و(مِيَاو) و(ليسُو) و(هَوى) و(لاَهو) و(وَا) و(نَاشى) و(يَاو) و(التبت) و(جِينْغْبُو) و(بُولاَنْغ) و(آتشانغ) و(نو) و(بومى) و(جينوه) و(بنغلونغ) و(دولونغ). (قوانغ، 1987م، صفحة 161)، إضافة إلى المغول والمسلمين.

وقد رسم سياسة دينية حكيمة فهو بنى مسجدين كبيرين هما: مسجد "نَان شَنْغ" (Nan Cheng) ومسجد "يُونغ نِينْغ" (Yong Ning)، وبنى أيضاً معابداً ومدارس لأتباع المعلم الفيلسوف كنفوشيوس[1]، بل هو أول من بنى بين سنتي 673-675هـ/1274-1276م معبد كنفوشيوسي في تاريخ (يُونَانْ)(Yunnan). ثم ألحق به مدرسة لتدريس التعاليم الكونفوشيوسية وعلوم أخرى كالطب والفلك وغيرها. وكانت تلك المدرسة تعتبر أول مدرسة في الإقليم تستقبل

[1]- الكونفوشيوسية هي ديانة أهل الصين تدعو إلى إحياء العادات والتقاليد الدينية التي ورثها الصينيون عن أجدادهم، مع إضافة بعض آراء الحكيم كونفوشيوس، وهي تقوم على عبادة الإله الأعظم وأرواح الآباء والأجداد وتقديس الملائكة، ويعتبر كونفوشيوس الذي ولد في سنة 551ق.م، في مدينة(تسو/Tsou)، المؤسس الحقيقي لها، اسمه (كونج/Kung) وهو اسم القبيلة التي ينتمي إليها، و(فوتس/Futze) ومعناها الرئيس أو الفيلسوف، وهو بذلك رئيس كونج أو فيلسوفها، تلقى علومه الفلسفية على يدي أستاذه "لوتس/Laotse" صاحب الفرقة الطاوية الذي كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كونفوشيوس خالفه داعيا إلى مقابلة السيئة بمثلها، أنشأ مدرسة لدراسة أصول الفلسفة، ثم عمل مستشاراً للأمراء والولاة، وعين قاضياً ووزيراً للعدل ورئيس وزراء في سنة 496 ق.م، فقام بإعدام بعض الوزراء وعدداً من رجال السياسة أصحاب الشغب، مات سنة 479 ق.م.(أنظر، (المغلوث، 1428هـ/2007م، صفحة 648).

التلاميذ من جميع القوميات والخلفيات الأسرية. واستفاد "شمس الدين" كثيراً من نظام الأوقاف الخاص بالمساجد، واقترح شراء بعض الأراضي لصالح المعابد لإنشاء المدارس وتأجيرها لتعود عائدتها للصرف على المدارس والمدرسين (كرار، 2007، الصفحات 56-57).

وقد تعجب بعض الباحثين الصينيين من اهتمام حاكم (يُونَانْ)(Yunnan) المسلم بالحياة الدينية ورعايته للمعابد والتعاليم الكونفوشيوسية ومعتنقيها، وتساءلوا عن سبب اختياره لإدارة الإقليم برنامجاً كنفوشيوسياً بدلا من برنامجاً إسلامياً، وهو الحاكم الشديد الإيمان بدينه، والمحبوب من شعبه، والمدعوم من الإمبراطور الصيني "قوبلاي خان"(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م) في "بكين"(Pékin)، ولم يجدوا جواباً لذلك، سوى أن "شمس الدين" قد أصبح صينياً حتى النخاع بعدما أقام مدة طويلة في الصين، بينما اعتقد البعض الأخر بأن المناطق الحدودية (مع كل من: منغوليا والتبت) مثل (يُونَانْ)(Yunnan) لها تاريخ تلاقح ثقافي مع الثقافة الصينية منذ القديم قبل حكم "أسرة يُوَانْ"(Dynasti Yuan)، وأنّ سكانها تأثروا بالتقاليد الكونفوشيوسية، وقد استفاد الحاكم المسلم من الوضع لتعزيز التنمية والاستقرار الاجتماعي في الإقليم (كرار، 2007، الصفحات 57-58).

ولكن الحقيقة أنّ "عمر شمس الدين" لم يُطبق في (يُونَانْ)(Yunnan) برنامجاً كنفوشيوسياً لأن مسلمي الصين ظلوا تاريخياً قريبين جداً من التعاليم الكنفوشوسية للتشابه الكثير منها مع تعاليم الإسلام، بل في واقع الأمر أن حاكم الولاية طبق برنامجاً إسلامياً راقياً قائماً على فَهْمٍ عميق لتعاليم الإسلام وتراثه العظيم، المبني على احترام الآخر والحوار معه بالحُسنى، وبسط قيمة العدل، ومنح الناس حقوقهم بما فيها الثقافية والاقتصادية. وقد نجح برنامجه الإسلامي المتسامح في ترقية المجتمع (كرار، 2007، صفحة 58).

تميزت العلاقة بين حاكم الإقليم ورعيته من الجنسيات المختلفة بالتفاهم والاحترام المتبادل، وكان سائر عمال الدولة الأخرين يقتدون بسيرته، فأمنت الطرقات واستراحت الرعية، وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد حتى أصبح يقال هنيئاً لبلاد (يُونَانْ)(Yunnan) (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 232، مج.1، ج.2). وكانت العلاقة بالرعية أقل ما يُقال عنها أنها رائعة وخاصة مع أبناء القوميات المختلفة، حيث أظهر هذا المربي المسلم تفاهماً واحتراماً منقطع النظير لثقافات مختلفة ونمط حياة دينية متعددة، حيث حرص على إظهار احترامه الكامل لتقاليد كل عرقية، ولم يكترث بالنظام العنصري الاجتماعي الذي فرضه المغول على المجتمعات التي حكموها في الصين، فقام بتعيين الإداريين الأكفاء من مختلف الجنسيات بغض النظر عن ترتيبهم في النظام الاجتماعي المغولي أو ديانتهم. حيث اختار مسؤولين لمناصب إدارية رئيسية من قوميات: (الهان)، و(التانغوت)، و(الباي) و(اليي) وغيرهم. وتحت قيادته عاشت القوميات الصينية المختلفة في سلام ووئام حقيقي، واستطاع في سنوات حكمه الست أن يضم مملكة "دَالِي" (Dali) ومملكة "نَان تَشاو"(Nan Zhao) بشكل نهائي للسلطة المركزية، لتصبح هاتان المنطقتان جزءاً من الصين، وقد اتفقت جميع الجنسيات ومختلف الطوائف الدينية في إقليم (يُونَانْ)(Yunnan) على عظمة الوالي المسلم وعدله وتواضعه، وهي تدل على عمق العلاقات التي أسس

لها هذا الحاكم مع محكوميه الذين تركوا بإرادتهم معابدهم التي بناها لهم وتحولوا إلى الإسلام أفواجاً دون ضغط (كرار، 2007، الصفحات 57-59).

كان "شمس الدين عمر" قائداً عسكرياً شجاعاً ورجلاً سياسياً فذاً صالحاً أولى اهتماماً واسعاً بتحسين معيشة الرعية وعمل على مساعدة الفقراء والمساكين، ولما توفي في عام 677هـ/1279م عن عمر ناهز 69 سنة في مدينة "كونمينغ" (Kunming)، كان قد رفع الانتاج الزراعي في ولاية (يُونَانْ)(Yunnan) بتحسين وسائل الري وقام بتخفيف الضرائب وعمل على تحسين المواصلات ونشر العلم والثقافة، وفي أيامه وصلت جاليات كثيرة من المسلمين إلى الولاية. (تشونغ، 1999، الصفحات 08-09)، ويوم الوفاة أُقيمت له جنازة مشهودة عمت الصين بأسرها وبكاه أهل (يُونَانْ)(Yunnan) كما يبكي الأولاد آبائهم، وعم الحداد في البلاد المجاورة وذبحت القرابين في بلاط الإمبراطور قوبلاي خان(Kubilai Khan) (لوثروب، 1394هـ/1973م، الصفحات 232-233، مج.1، ج.2) (هويدى، يوليو، 1981م، صفحة 53).

وبقى أثر أعمال حاكم (يُونَانْ)(Yunnan) بارزا في تاريخ الصين ففي فترة حكم أسرة "مينغ"(Ming)[1] (769-1053هـ/1368-1644م) راجع الإمبراطور "تاي تسوكاو هوانغ تي" 769-801هـ/1368-1399م) تراجم وزراء الدولة السابقين فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل الشخصية المسلمة "السيد الأجل شمس الدين عمر"، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (ين تشه شو)، وأمر بتدريسه للطلبة وأن ينشر في جميع الصين، وقد ثَّبتَ الإمبراطور لقب "السيد الأجل" على "عمر شمس الدين" وأضاف إليه "الأمير الأمين المحسن"، وأمر ببناء هياكل تذبح فيها القرابين على روحه. وفي سنة 807هـ/1405م صَدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة له بقلم "شينغ هو"، كما يوجد في (يُونَانْ)(Yunnan) هيكل باسم الأمير "هيان يانغ" وهو لقب السيد الأجل عند الصينيين (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 233، مج.1، ج.2).

5- منجزات أولاد وأحفاد "عمر شمس الدين"

مما لا شك فيه، أن الخبرة التي امتاز بها "عمر شمس الدين" البخاري، وقدرته على قيادة الدولة وإدارة مؤسساتها بنجاح، هي التي دفعت بالإمبراطور "قوبيلاي خان"(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م) وأبناؤه من بعده التمسك بعائلة هذا الأخير، وتقليدهم أعلى المناصب في الدولة، كمنصب الوزير، لأن الخبرة والتجربة التي تحلى بها الحاكم المسلم، أفادت كثيراً في تقوية مؤسسات الدولة السياسية والإدارية والمالية والدينية والاقتصادية، مما ولدّ لدى أباطرة المغول بالصين قناعة راسخة بأن الشخصيات الإسلامية هي القادرة على تحمل أعباء الدولة جنباً إلى جنب مع القادة المغول، وهي القناعة التي تمخض عنها تقارب مغول الصين مع المسلمين (الجوارنة، 2003م، صفحة 08).

[1]- في نهاية حكم أسرة يوان المغولية بالصين كثر التناقض الطبقي والقومي الأمر الذي أثار عدة انتفاضات فلاحية، وفي عام 1368م قاد "تشو يوان تشانغ" ثورة ونجح في إسقاط أسرة يوان من حكم الصين، وأسس لبداية حكم أسرة مينغ للصين واتخذ من مدينة "بينغ تيان" (نانجينغ في مقاطعة جيانغسو اليوم) عاصمة له. (ينظر، (تسآو دا وي ووسون يان جينغ ، 2011م، صفحة 114).

وكان "عمر شمس الدين" قد خَلَّفَ خمسة أولاد وتسعة عشر حفيداً، واصلوا في نفس سياسة والدهم وجدهم في إدارة الإقليم، وحَظَوا هم كذلك بنفس التقدير والاحترام من طرف الدولة والأباطرة المغول بالصين (كرار، 2007، الصفحات 58-59). وأولاده الخمسة الذين قدموا الكثير للصين هم: "**ناصر الدين**" والصينيون يسمونه "نا سولا تينغ" (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 233، مج.1، ج.2)، يخبرنا مؤرخ المغول رشيد الدين أن هذا الأخير خَلَفَ أباه في حكم ولاية "قراجانك"، إلى غاية وفاة والده (الهمذاني، 1983م، صفحة 284)، ثم أصبح وزيراً للدولة، وبعدها والياً على "شَانْسِي أو سينشي"(Shaanxi /Cenxi) ثم على (يُونَانْ)(Yunnan) ومات في عام 691هـ/1292م (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 233، مج.1، ج.2)، ودفن في حديقته بعاصمة الإمبراطورية "خان باليق" (بكين)(Pékin) (الهمذاني، 1983م، صفحة 284). والابن الثاني هو "**حسن**" أصبح قائداً عاماً لجيوش "كَوَانْغ تُونْغ"(Kyang Tong)، والثالث "**حسين**" صار وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية "كيانغ سي"(Kiyang Ci) ثم والياً وقائداً عاماً لولاية (يُونَانْ)(Yunnan) فخلف أخيه "ناصر الدين" بعد وفاته، والابن الرابع هو "**شمس الدين عمر**" كان مديراً عاماً لمقاطعة "كيين تشانغ" (Kiin Tchang) من ولاية "كيانغ سى"(Kiyang Ci)، والخامس "**مسعود**" والصينيون ينطقونه "**ماسوهو**" وهو كذلك كان وزيراً كبيراً في الإمبراطورية ثم أصبح والياً على (يُونَانْ)(Yunnan). (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 233، مج.1، ج.2).

ويبدو أن العلاقة بين المسلمين عامة وقوبلاي خان(Kubilai Khan)(658-693هـ/1260- 1294م) تدهورت في فترة من فتراته ولكن في أواخر حكمه أحس بحجم الخسارة المادية التي تكبدتها دولته في الصين، بسبب التشدّد إزاء المسلمين، فأعاد ثقته الأولى بالمسلمين، وبالأخص بأسرة السيد الأجل البخاري، حيث اختار من أحفاده: "**أبو بكر**"، ولقبه "**بايان فنجان**" أي (صاحب الديوان)، وظل وزيراً ويحتفظ بمنصب الوزارة إلى أن مات قوبلاي خان(Kubilai Khan) سنة 694هـ/ 1294م، وخلال تلك المدة أدار البلاد إدارة ناجحة، وقد عمل الواشون من أجل الإطاحة به وعزله من منصبه، فأبلغوا الإمبراطور أن الوزير بَدَّدَ ستمائة ألف كيس من النقود، ما دفع بالخان إلى استجوابه، فأجابه "أبو بكر": بأنه أنفق المال على الرعية، إذ إن السماء لم تمطر ثلاثة أعوام، ولم ينتج محصول، وعمت المجاعة، وإذَ أمره الخان بإرجاع المال فسوف يضطر إلى بيع نساءهم وأطفالهم من أجل إرجاع الأموال إلى الخزينة، ولكن سوف تخرب الولاية، فأعجب الخان بالرد، وقال: إن جميع النواب والأمراء يهتمون بأنفسهم فقط، على حين أن "بايان فنجان" يهتم بشؤون الملك والرعية، وازدادت ثقته بوزيره، وأوكل إليه التصرف في جميع شؤون الإمبراطورية (الهمذاني، 1983م، الصفحات 295-296).

وبذلك تعزّزت الثقة بين "أبي بكر" وقوبلاي خان(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م) وزاد نفوذه، فقد اختاره الخان لتنفيذ حملة عسكرية تأديبية على "سونغ"(Soung)، وكلّفه باستقصاء الأمور وجمع المعلومات، تحضيراً لقيادة حملة عسكرية بنفسه ووضع حداً للتمرد في منغوليا بزعامة "نايان" وضم العاصمة "قراقورم" (مان، 2013م، صفحة 365).

وقد نال "أبو بكر" المعروف بـ"بايان فنجان" ألقاب جده كلها وأسرع لنجدة الإمبراطور في "بكين" (Pékin) فنال لقب "الأمير الأمين المجتهد"، وهو الذي رمم المسجد الأعظم في "سِينْغَانْ فُو" واستصدر في عام 735هـ/1335م اعترافاً من الإمبراطور الصيني بأن الإسلام هو "دين الحق الخالص"، وأطلقت عليه الدولة الصينية اسم "الدين الطاهر الحق" (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 233، مج.1، ج.2) (هويدى، يوليو، 1981م، صفحة 54). ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يَهِبّ إمبراطور المغول وخانهم هذه الثقة وتلك الصلاحيات الواسعة لشخص مسلم كأبي بكر، إلاّ لأن الرجل كان يتمتع بقدرات فائقة في الإدارة والحكم، وخبرة واسعة في معرفة أنظمة الإمبراطورية وسياسة الرعية، إلى جانب إخلاصه وولائه لأسرة وقوبلاي خان(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م)، التي احتضنته وقلدته أعلى المناصب في الإمبراطورية، ولا شك إن حاجة الخان إليه لإدارة الدولة ومؤسساتها وتنظيم مواردها المالية كان كبيراً، وأن السعي إلى المحافظة على وحدة الأسرة المغولية الحاكمة في الصين، هي الأسباب المباشرة التي دفعت بخان المغول إلى التمسك بأبي بكر (الجوارنة، 2003م، صفحة 15).

وقد أدي "أبي بكر" أو "بيان" دوراً مهما لا سيما في ظروف المرض التي ألمت بالخان قوبلاي(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م) في أواخر حكمه، وما أعقب ذلك من انتشار للفوضى داخل الدولة في بلاد الصين، بين أبناء قوبلاي خان وأحفاده، من أجل خلافة العرش (الجوارنة، 2003م، الصفحات 14-15)، فقد أدرك الجميع في يوم 29 صفر 693هـ/ 28 يناير 1294م الموافق لرأس السنة الصينية -وفق التقويم القمري- أن نهاية الخان وشيكة، لأنه لم يستطع حضور الاحتفالات المعتادة في "بكين"(Pékin)، ولم يعقد استعراضاً عسكرياً للفيلة والخيول البيضاء بسروجها المزركشة كعادته، ولم يترأس مأدبة الطعام التي تقام بالصالة الواسعة بقصره الجميل، لذلك تم إرسال رَسُولٌ على وجه السرعة إلى الرجل القوي القادر على تدارك الأمر والرفع من معنويات الخان، وهو "أبي بكر" (بيان) الذي كان مرابطاً في مدينة "دَاتُونْغ" (Datokg) الواقعة على بُعد 300 كلم من العاصمة، فوصل بعد ثلاثة أيام واجتمع سريعاً بالإمبراطور، حيث قدم له وعداً بالاستمرار بالولاء الأبدي له ولأسرته، في المقابل كلفه الخان بأن يكون واحداً من الثلاثة الذين سيقومون بتنفيذ وصيته (مان، 2013م، صفحة 371).

في هذه الأثناء برزت الملكة "كوجين خاتون" والدة "تيمور" ابن "جِيمْ كِيم" ابن قوبلاي، التي سعت إلى تحقيق رغباتها الخاصة المتمثلة في العمل على إيصال ابنها "تيمور" إلى العرش، وما كان عليها سوى التقرب من "أبي بكر" صاحب الوزارة، والمتصرف في شؤون الدولة، ونجحت في توثيق علاقتها به، وطلبت منه إقناع قوبلاي خان(Kubilai Khan) (658-693هـ/1260- 1294م) بتعيين حفيده "تيمور" حاكماً على عرش "جيم كيم" بعد أبيه الذي عُطل لمدة تسع سنوات، ففعل الإمبراطور ذلك وكلفه بتنفيذ أوامره وإجلاس حفيده تيمور على العرش بمدينة "كيمن فو" (الهمذاني، 1983م، الصفحات 296-297).

عمل "أبي بكر" على استقرار أوضاع إمبراطورية المغول في الصين بعد وفاة قوبلاي خان(Kubilai Khan) في يوم 21 ربيع الأول693هـ/ 18 فبراير 694هـ/1294م، وحسم الأمر في الصراع الذي نشب بين "تَيمُورْ"(Taymor) بن "جيم كيم"(Djim Kim) بن قوبلاي خان وأخيه الأكبر "كَمِلاَ"(Kamila) على خلافة العرش الصيني، وقد أدى دوراً

مهما في ايصال "تَيمُورْ"(Taymor) إلى سدة الحكم، حيث أرسلته والدة هذا الأخير الملكة "كوجين خاتون" لإحضار ابنها بسرعة ليتولى عرش المملكة، بعد الفراغ السياسي الذي دام عاماً كاملاً، كما اصطف "أبو بكر" رفقة كبار القادة المغول إلى "تَيمُورْ"(Taymor) في القروليتاي (الاجتماع العام) المنعقد في مدينة "كِيمِينْ فُو"(Kimin Fou) عام 694هـ/1294م لتعيين الخان، وسارعوا إلى تنصيبه على العرش في نفس السنة، وبعد إقامة الاحتفالات، شرع الخان الجديد في ترتيب شؤون الإمبراطورية، وثَّبَتَ "أبا بكر" (بايان فنجان) في منصب صاحب الديوان كما كان سابقاً، وحمل لقب "السيد الأجل"، وهذا اللقب يحمل مكانة كبيرة عند المغول، وهو أشرف الألقاب وأسماها، فهو لقب للوزير الكبير، لذلك قرر "تَيمُورْ خان"(Taymor Khan) إطلاق هذا اللقب على "أبو بكر" على سبيل الاحترام والرفعة، وأصبح هو الوزير الأعظم الذي لديه كلمة مسموعة إلى أقصى حد في الإمبراطورية (الهمذاني، 1983م، الصفحات 313-315).

أما في فترة حكم حفيد قوبيلاي خان "تُو غَا تَيْمُور"(Touga Taymor) (732-771هـ/ 1332-1370م) برزت شخصية مهمة ومتنفذة من أحفاد "شمس الدين عمر"، امتلكت ناصية القرار في الإمبراطورية المغولية بالصين، هذه الشخصية تمثلت في السيد **"باين جاسر الدين"**، الذي تولى منصب رئاسة الوزراء لمدة عشر سنوات امتدت من سنة730هـ/ 1330م إلى عام 740هـ/ 1340م، وأبدي كفاءة عالية في إدارة الدولة (الجوارنة، 2003م، صفحة 19).

ومن أولئك الحفدة **"عمر"** الذي عُرف عند الصينيين باسم (قوما أول)(Kouma Auel) ، كان من وزراء الدولة ثم أصبح والياً على "كِيَانْغ تْشُو" (Kiang Tchoo). ومن الأحفاد كذلك **"جعفر"** الذي كان قائداً عاماً لعساكر "كينغ هو"(King Ho). ومنهم **"حسين"** صار وزيراً للدولة وخلف أخاه "بايان تشيان" في حكم ولاية (يُونَانْ)(Yunnan)، ومنهم **"شادي"** الذي أصبح حاكماً على احدى مقاطعات (يُونَانْ)(Yunnan)، و**"أيوب"** الذي عُرف عند الصينيين باسم (أيونغ)، الذي أصبح مدير قلم التشريفات في دار القرابين، ومنهم **"بيان تشار"** أصبح وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الإمبراطور الصيني بـ"الجابي الأكبر". و**"برهان"** الذي كان حاكماً على "يُونَانْ سِين"(Younan Cyin)، و**"كولى"(Koli)** كان قائداً عاماً لعساكر "هونان"(Honnan) (لوثروب، 1394هـ/1973م، الصفحات 233-234. مج.1، ج.2).

ومن أحفاد شخصيتنا بعد سبعة بطون رجل يقال له **"حاجي"** والصينيون يسمونه (سى هاتشى) (Si Hatchi)، أدى إليه إمبراطور الصين مبالغ من النقود بنى بها مساجد في "نَانْكِينج"(Nankin) و"سِينْغَانْ فُو"(Singan Fou)، ومن أعيان هذه الأسرة رجل اسمه **"يوسف"** بينه وبين السيد الأجل 14 بطناً، ولد في حوالي عام 1008هـ/ 1600م والصينيون يسمونه (ماشيكونغ) كان عالماً فاضلاً استدعاه الإمبراطور إلى العاصمة بكين (Pékin) في عام 1075هـ/1665م، واستشاره في الأمور الدينية والعسكرية، وأصبح مدرساً في مدرسة "كووتسوكيين"، وفي عام 1096هـ/1685م نشر كتاباً اسمه "بوصلة الإسلام". ومن الأحفاد في الوقت المعاصر **"أمير ألاى"**(Amir Alai) كان بالجيش الصيني في عام 1325هـ/1907م، ومنهم رئيس جماعة مسلمي **"ينان فو"** وناظر أوقافهم. وأكبر ممثل لتلك الأسرة

اليوم هو "نَافَاتسِينْغْ" إمام جامع "مَا شُوكيا"(Machokia) (لوثروب، 1394هـ/1973م، صفحة 234، مج.1، ج.2).

هذه المعالم ترسم إلى حد كبير الصورة التي اسهم بها السيد الأجل رفقة أبنائه وأحفاده وسلالته في الحياة الصينية. وهو إسهام كان متعدد الأشكال، فضلاً عن أنه استمر إلى ما بعد حكم "أسرة يُوَانْ"(Dynasti Yuan) (هويدى، يوليو، 1981م، صفحة 55).

خاتمة

خلاصة القول، أن السيد الأجل شمس الدين عمر وأسرته كانت لهم اسهامات بارزة في تاريخ الصين أثناء حكم "أسرة يُوَانْ"(Dynasti Yuan) المغولية، واستمروا في دعم الأسر الصينية الحاكمة طيلة العصر الوسيط إلى الوقت الحاضر، فقد تقلدوا مناصب مرموقة وحساسة في الدولة، وأثبتوا كفاءتهم وجدارتهم في حل الكثير من المشاكل، وقد أصبح مؤسس الأسرة "شمس الدين عمر" نموذجاً يحتذي به في الإدارة الرشيدة، وبانت مواهبه في ولاية (يُونَانْ)(Yunnan) التي استطاع اخراجها من حيز التخلف إلى طور التقدم والرقي، كما كانت فترة حكمه للولاية تجربة رائدة في تقلد المسلمين المناصب في تاريخ الصين، واستطاع تعزيز الروابط الإيجابية بين مسلمي الصين وسكانها الأصليون، فقد عاشت مختلف العرقيات في الولاية جنباً إلى جنب دون مشاكل تذكر، تحت رعاية هذا الوالي الحَكِيم. ومن أبرز مميزاته أنه أرسى مبادئ التسامح والتعايش الديني بين الأديان والمعتقدات المختلفة بالولاية كالطاوية والكونفوشيوسية والبوذية والشامانية(معتقد المغول) والإسلام والمسيحية، في الوقت الذي كانت فيه أغلب المناطق الأخرى تعرف موجة من التعصب الديني. وإنها لا صورة رائعة من صور التواصل الحضاري بين الشعوب والعرقيات المختلفة أثناء حكم "أسرة يُوَانْ"(Dynasti Yuan) للصين.

قائمة المراجع العربية:

1. أحمد جعفر، كرار، (31 جانفي، 2007)، "دراسة حول الإسلام والمسلمون في ظل الدولة المغولية في الصين". مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، العدد 2. ص.ص. 1-66.
2. أحمد محمد، الجوارنة. (أيلول-كانون أول, 2003م)، "المؤثرات العربية الإسلامية على شعوب الصين في عهد إمبراطورية (يين) المغولية في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين". مجلة دراسات تاريخية، (العددان 83-84). ص.ص 139-183.
3. شهاب الدين، ياقوت الحموي، (1397هـ/1977م)، معجم البلدان، (المجلد مج.1)، بيروت: دار صادر.
4. القلقشندي، (د.ت.ن)، الصبح الأعشى في صناعة الإنشي، (المجلد ج.4)، القاهرة: دار الكتب الخديوية.
5. بارتولد، (1401هـ/1981م)، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب.
6. بارتولد، (1416هـ/1996م)، تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب.
7. تسآو، دا وي ووسون، يان جينغ، (2011م)، تاريخ الصين، بكين: دار النشر الصينية عبر القارات.
8. جون، مان، (2013م)، قوبلاي خان ملك المغول الذي أعاد بناء الصين، ترجمة أحمد لطفي، أبوظبي: دار الكتب الوطني.
9. رشيد الدين، فضل الله الهمذاني، (1983م)، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قاآن إلى تيمور قاآن، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، بيروت: دار النهضة العربية للنشر والطباعة.
10. سامي، بن عبد الله بن أحمد، المغلوث، (1428هـ/2007م)، أطلس الأديان، الرياض: العبيكان للنشر.
11. ستودارد، لوثروب الأمريكي، (1394هـ/1973م)، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، (المجلد مج.1، ج.2)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،.
12. شيرين، بياني، (2013م)، المغول التركيبة الدينية والسياسية، ترجمة علي ونصير الكعبي سيف، بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث.
13. شيوى، قوانغ، (1987م)، جغرافيا الصين، ترجمة محمد أبو جراد، المترجمون، بكين: دار النشر باللغات الأجنبية.
14. عبد المعطي، الصياد، (1980م)، المغول في التاريخ، (المجلد ج.1)، بيروت: دار النهضة العربية.
15. علي لي، تشين تشونغ، (30 يونيو/حزيران، 1999)، "آثار العرب ومآثرهم في الصين عبر التاريخ". مجلة الفكر السياسي، المجلد 1999، (العدد 7). ص.ص 198-207.

16. فهدي، هويدى، (يوليو، 1981م)، الإسلام في الصين، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
17. كارل، بروكلمان، (1968م)، تاريخ الشعوب الإسلامي، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، بيروت: دار العلم للملايين.
18. دون مؤلف، (1987م)، "تاريخ الصين". مجلة بناء الصين، ج.2.
19. وو خه، جاو، وأخرين، (2004م)، تاريخ تطور الفكر الصيني، ترجمة عبد العزيز حمدى عبد العزرز، المترجمون، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

قائمة المراجع الأجنبية:

20..Le BARON, C.D'ohsson .(1834) . *Histoire des mongols, depuis Tchinguiz-KHAN Timour BEY ou TAMERLAN,* Tome 1,LA HAYE ET AMSTERDAM LES FR2RES VAN CLEEF.